

## سبطانه بنتوور

( المحادثة الحادية عشرة )

قال الهدهد : لما كان الغد ، ورد في الجرائد من جملة الفوائد ، ان عرابي (١) زعيم الثورة المشهورة ، والرميم الباقي من تلك الفتنة المقبور ، يصل الى القاهرة عصر اليوم ، ويرده الزمن النكد الى القوم . فقلت في نفسي بشس اليوم ، مضت فيه المدة على الجناية ، وختمت به فصول الرواية ، ونحن فيه ما كنا بالامس ، أخلاق خلقة ورابطة ممزقة ، وقلوب متفرقة ، وآمال بالصغائر معلقة ، وعقول للاباطيل مصدقة ، ونفوس الى غير المجد شيقة ، نغالطها في حقائق الاشياء ، ونمدها في المداهنة والرياء ، ونحملها الحسد والحقد والبغضاء ، ولا نردها الى صحيح اعتقاد في معاش ولا معاد . وليس الرجل في اعتقادي - بصرف النظر عن عظيم جنايته وماتحل به الظنون من تهمة الخيانة - من رجال التاريخ وأن حسب عليه ظلماً ، ولا أجده مثلاً فيه إلا بعض المخلوقات المكرومة مما ذكر في الكتاب أو حفظ في التاريخ ، مثل هدهد سليمان ولبد لقمان ، ونملة القرآن ، والنعام ، وبغلة ابي دلالة ، واليمام والعنكبوت ، وذلك الحوت ، وايس المصريين ، وأوز الرومانيين ، وكبش اسماعيل ، وبقرة بنى اسرائيل والغراب الذى أزال حيرة قايل ، وبوسيفال مطية الاسكندر ، وفيل ابرهه ، وحمار المسيح ، وناقة صالح ، وأنثى الذئب التى أرضعت رومولوس مؤسس الامبراطورية الرومانية ، وأبى قيس قرد اليزيد ، وأسد بن طولون ، وثعبان كايوباتره ، وكلب أصحاب الكهف . ويؤخذ من أحاديث الناس عنه في أول أمره وماظهر في زمن الثورة من سعيه في

١ المصور - هذه اقوال امتها حاجات العصر البائد وهى اثر من اثار الحملة الكبيرة التى كانت تدبرها السراى فى عصر الحديو السابق ضد عرابي اول قاتل مصر للمصريين ، وحامل لواء القومية المصرية فى عصر السلام والبطل الاول من ابطال الاستقلال . ومن غريب امر هذا الرجل العظيم بحق ، والمنكود الطالع بحق ايضاً ان تطبع مذكراته فى مصر ، ويضحى فى سبيلها احد اولاده بما هو فى امس الحاجة اليمن المال ، فلا يقرؤها الا عثرات . نخذ نسخها اكثرهم هدايا من ولده البارز كرى والده الميرور ، ولا يكتب عن هذه المذكرات الا كاتب واحد يعرفه محرر المصور حق المعرفة

تجسيم الشر ، وعمله على توسيع الخرق ، إن أمره مروم وأنه حاول أن يغير الحال ، وسعى لما يسعو اليه عظماء الرجال ، فخدع الامة ثم انخدع بها (١) ، وساق الحكومة ثم انساق بها ، واشتد عليه الموقف فدخل فيه صغير العقل ، وخرج منه صغير النفس : همه كبيرة صغرها الجهل ، وحب للحرية أفسده الطمع ، والرجل من هذه الوجهة لا يخلو من فضل ولو تخرج في المدارس الحربية . ونشأ في السياسة نشأة تليق بالعصر الذي ظهر فيه ، ثم علق آماله بالمقبول المعقول من الامور ، وبني مطالبه على الحرية المعتدلة ، لنال بالجد كل مرام ، وبلغ مراتب الرجال العظام .

(قال) وكان موعدي مع النصر أن نلتقى في مجلس عمرو . فلما كان الاصيل خرجت الى القسطاط ، في زى قسيس من الاقباط ، كما سبق بذلك الاشتراط ، وأنا انتظر من الاستاذ أن يرى في (عربي) رأيه ويقول فيه كلمته ، واعلم أنه كبير الانظار في الحوادث الكبار ، وله في الامور الفصل ، وحكمه على الرجال العدل . فحين بلغت مدينة ابن العاص التي فتحها للاسلام بالرأى قبل الفتح بالسيف ، وافيت مقر الامارة ، وهناك ما كان أسهل انوصول ، وأيسر الدخول ، رفعت الحجب بين عامل عمر ، وبين الزمر ، واقتدى به وجوه العرب في سلوكهم ، والناس على دين ملوكهم . فاستقبلت مجلساً أليق بالوعاظ والعلماء ، منه بالملوك والامراء . وقدمت على أمير تاجه العمامة ، ومطرقه القباء ووصلجانه السيف ، وكرسيه التراب وحاشيته الاصحاب وقصره خيمة محدودة الاطواب يحيط به العرب وكأنه أحدهم . ودوزعيمهم في مصر وسيدهم .

وكان التسربين يديه . قد سبقني اليه . وهو يبالغ للعامل في الخطاب ، ويلقى السؤال . يأخذ الجواب . فسمعته يقول : —

« هذه دنيا كم يا ابن العاص لاتغتزون بها . ولا تحفلون بحبها . وأنها لدنيا العقلاء . وطلبة الحكماء . فكيف دينكم ؟ »

قال : أسهل وأيسر وأسمح . الشهادة وهي كلمة ، والصلاة وهي عصمة ، والزكاة وهي

(١) المصور — أمانه خدع الامة فلا . ومانه انخدع بها فنع . ومانه ساق الحكومة فنع . ومانه انساق بها فلا . وهكذا اذا اخذت تجارب على هذه القضايا المتلاحقة نفع ولا ، مع اختبار الموضع الذي توضع فيه كل منها بما يطابق الحق يخرج بنتيجة اخرى .

رحمة ، والحج وهو الحكمة ، وما سوى ذلك فزيادة في العبادة أو بدع تأتي بها الأيام وأغراض لا يصدأ بها جوهر الاسلام .

قال : « نعمت الدنيا لو لم نزل عن الخلفاء ، وتقول الى الملوك والامراء ، وحبذا الدين لو سلم من عبث الفقهاء ، وعبث الجاهلاء . قال : « وما يمنعك أيها القسيس أن تستقبل هذه الدنيا وتدخل في هذا الدين » قال : « انى أتبع ديناً يقال فيه في جملة البلاء به » . إيريس لو لم تتوحدى لما كانت الاشياء . وإن تصل الى حواشى حجابك يد الاحياء . فالمعبود اذا واحد وأن اختلفت الاسماء .

قال : « أى الاديان هذه » قال : « دين المصريين القدماء » قال : « عجياً أنى مصر بقية من القوم ؟ » قال : « ليس للظالم دين يا ابن العاص . والرومان قوم ظالمون . دخلوا هذه البلاد فافسدوا فيها وهدموا ما بنى أعجب المسيح عليه السلام بزهدهم وتجردهم وتسميهم من بنيان للتصراية متين ، وركن للمسيحية ممكن ، وغادروا مصر لا تخلو من عاكف خاصة في سريره على دين آباءه وأجداده . وأنا من هذا الفريق » قال : « الآن انك عن عبادة الأصنام ، وأمرك بالدخول في الاسلام ، إما أن تقبل ، وإما أن تقتل » قال : « القتل أحب الى يا ابن العاص . ولكن لى كلمة أقولها وأرجو أن تسمع لى » قال : « هات » قال : « على التمسك بالدين قامت دولتنا القرون الطوال ، ومن بشدة التمسك به أدر كها الزوال ، فذهبت من أجل ( هرر ) وأمسست احدى العبر ، ولا أكره أنا أيضاً أن أذهب على الأثر » .

( قال الهدهد ) فلم أدر بالاستاذ إلا وقد عاد سيرته الأولى ، فاذا هو نسر يطير بين أعين القوم ، وهم من أمره في أعظم الدهش . فلحقته به ومازلنا ننفذ الافق حتى هبطنا ناحية من القسطنطينية فمئلا كما لو كنا قسيسين من الأقباط ، وهناك التفت إلى وقال : « كيف وجدتهى وصاحبك ؟ » قلت : « ألان لك وجه الامر ، وخاشين آخره . قال بالحق خاشين ، وبالحق حاسن . لان مقاومة الاثنية فرض على نصراء العقل ، وحماة الحقيقة ، وقد تكفل بها الاسلام لسائر الملل » .

قلت قد كان لك غنى يامولاي عن التكشف له واطلاعه على حقيقة معتقدك . قال أردت أن أريك كيف يحفظ القوم دينهم في الكبيرة والصغيرة . قلت ماذا يرى مولاي في عرابي وقد عاد وردته الجوارى بالنحس إلى البلاد ؟

قال كيف خلقت القوم بازاء عودته ؟ قلت تركتهم ينظرون إلى الجاني ولا

ينظرون إلى جنائته ، ويرثه أجهل الناس به ولا يهتف هو ببرائه ،  
قال : «عجبا لكم معشر المصريين ! أنتم أمة التاريخ ، وليس لكم فيه كتاب ؟ هلا تشبهتم  
بآبائكم الاولين ! فلقد كان الواحد منا أحرص الناس على حديث بعده يؤبده ، في  
حجر يشيده ، وذكر مع الزمن يخلده ، في أثر ينضده » .

« وكان أحب الأعمال إلى ملوكنا وضع التاريخ وتدوين السير ، لعلمهم بأن  
التاريخ دليل الأمم ومرشد الشعوب ، وإن قوما لا يعرفون ماضيهم لا يكون لهم  
بحاضرهم اعتناء ، ولا في آتيهم رجاء ، أليس عارا عظيما على الشرقيين وفيهم اليوم  
العالم الذكي ، والكاتب اللامعي ، أن لا يعلموا من سيرة الأمير عبد الرحمن المتوفى  
بالأمس غير ما تنقله صحف الغربيين ومجلاتهم ؟ وعليكم معشر المصريين خصوصا  
أن تظل الحوادث العراية حتى الآن مقلوبة الحقائق ، بمجولة الدقائق ، يؤخذ الميت  
فيها بذنب الحى ، وتلصق بالحى في مداراة الميت ؟ تنطقون فيها عن الهوى ، وتحكمون  
على محدثيها بمقتضى الهوى ، ولو دونت حق تدوينها لكان فيها لكباركم مزدجر ،  
ولصغاركم مع الأيام معتبر .

قلت : « ما سألت هذا يا مولاي ، ولكن سألت رأيك في عراقى ، قال : « لا رأى لى  
فى الرجل ولما يمثله التاريخ للناس ، وإنما أسترعيك القضية لا تفوت أهل النظر ،  
فى أحوال البشر ، والباحثين فى طبائع الاجتماع ، قلت : « وما نملك يا مولاي » . قال : « يدهش  
الناظر المتأمل والباحث المدقق لما يرى من التفاوت البين فى الاخلاق والتباين  
الظاهر فى الطباع بينكم معاشر النازلين هذا الوادى فى شمال افريقيا وبين أمة البوير  
سكان الجنوب ، و يحار فلا يدري بأى الآراء الثلاثة يأخذ والى أى المذاهب الثلاثة

يرجع

أيدى مع القائلين بفعل البيئة فى الامم وتأثير الاقليم فى الشعوب ، و سلطان  
المقام على المقيم ، فيحكم أن جار الليث أسد ، و جار العير وتد ؟  
أم يحارى الذاهبين الى أن اختلاف الطبايع ليس الا نتيجة اختلاف  
الاجناس ؟

أم يعتمد على رأى القائلين بأن العقل البشرى ، وهو مركز القوى المدركة فى  
الانسان ، والنفس وهى مهبط الفضائل أو الرذائل فيه ، ليستا إلا هيتين يشتركان فيهما

اصناف العباد، وأن تفرقوا في أطراف البلاد، وإنما يصح العقل بالتعليم الصحيح وتقوم النفس بالتربية الحقة ؟

على أنني الى هذا الرأي الثالث أميل، وعليه في اعتقادي الممول، فلو أن عرابي وجماعته عرفوا القرآن عرفان كروجر وقومه للانجيل، فلم يخلطوا الدين والبدع، وكلاهما عند أكثركم شرع، أو أن عقولهم نورت بالعلم الحقيقي ونفوسهم هذبت بالتربية السليمة، لاجفلوا عن الثورة في أولها، أو لسلبوا بأعراضهم في آخرها. ولكن قلة العلم وفساد التربية قعدا بهم عن مقاومة الاستبداد في أبانها، ودفعها بهم الى الاهتمام بشأنه، بعد انقضاء زمانه، وهاتان هما بلية الشرق وآفة سكانه. على أنكم اليوم لا تزالون في فضاء من أمركم، إن شتمتم نهضتم، وإن شتمتم ربضتم. مظالم نائمة، وحرية قائمة، وأقلام مادحة لائمة، فعليكم بالعلم خذوه نافعا رافعا، واهجروا منه ما يبيت الى ما يحبي، واطلبوه لدنيا تعملون لها فانكم تعيشون أبداً أو لآخره تعملون لها كأنكم تموتون غداً.

وعليكم كذلك بالتربية. فانها باب مدينة العلم. لا تدخل إلا منه، خذوا صحيحها ولا تأخذوا فاسدها. واطلبوها لانفسكم فان كبرت عنها فلا بنائكم. فان لم تكمل لهم كملت لابنائهم من بعدهم. وكونوا (الحفظة) الذين تكرم عليهم بلادهم في الشدة أضعاف ما تكرم عليهم في الرخاء. يكونها بالدموع آتية. وفي القلوب آتية. لا يغفلون لها عن حرمة. ولا يقصرون لها في الخدمة. حبهام لها العشق. لا التفات فيه الى ملامة، ولا قبيحة معه للسلامة، أعمار الافراد قصار، والامم طويلة الاعمار. وآمال الواحد الفرد تفوت بموته. وآمال الجماعة لاتفوت. وإنما هي لهم مثل الورق للشجر. ينزعه حيناً ويكساه حيناً.

وما بنى قوم بناءهم في المجد ولا قامت سعادة أمة الا على العلم والتربية. وهما اما يحصلان في المدرسة. وليس ما يمنعكم من اشائها. فاذا انشأها غلبكم غير مسرف. ودخلها الكهل بالليل غير مستكف. ولزمها الصبي بالنهار غير متكلف. وأخذتم العلم فيها كما يريد زمانكم الذي أنتم مخلوقون له ان يؤخذ. فقد استقبلتم الحياة من وجهها الحق، وأخذتم التقدم العصري بالسبب الاوثق.

واللغة رأس مال الامة في العلم، العرفان. والدين رأس مالها في التربية والاخلاق.

فاجعلوا المحل الاول في مدارسكم لهذين . فالثمرات انما تأتي بقدرهما . الانسان اذا علم كان انسان العين . واذا جهل كان انسان الغاية . والعلم أن لم يتأسس بالترية . كان لحامله محنة . وللناس فتنة . فاجمعوا بينهما في الدار . ثم في المدرسة . ثم في الحياة . تلك المدارس الثلاث الكبرى .

فأما الدار فلاستاذ فيها المرأة . وأما المدرسة فالمعلم فيها الرجل . وأما الحياة فالمرءى فيها الزمن .

فابدؤا بالنساء فعملوهن في الصغر . يعلمنكم في الكبر . وربوهن في الطفولة . يرينكم في السهولة . ولا تنشوا مدرسة واحدة للرجال الا وقد أنشأتم مدرستين اثنتين للنساء .

اذا اشتغل الحليم بالسفيه شارف على السفاهة . واذا اشتغل العالم بالجهول شارف على الجهالة . وأكثر ما ينتشر السفهاء والجهلاء . وأشد ما يكون افسادهم واذاؤهم في الأمم . وهي في بداية نهضتها .

فقلها عندئذ كالأنهار الكبيرة في أزمنة الفيضان . تسوق الافذار فتساق بتيارها ، ويختلط الخبيث بالطيب ، ثم لا تلبث أن تلفظ الفاسد وتستبقى الصالح ، فينصلح الماء . وتفيض الخيرات على البلاد والعباد ، فلا يذبط لثامكم كرامكم ، ولا تلقوا للصغار مما يحذثون بالا . واعملوا كل بما تعلم من علم أو صناعة ، واتقوا العمل ، فان اتقانه يلقي عليه النعم والبركة ، ويولد بين العاملين المنافسة والمسابقة والمزاحمة ، وعلى هذا تقوم حياة الأمم . كما تقوم حياة الافراد على دورة الدم .

ليس بين ديبب الحياة في الامة وبين ظهورها كاملة الادوات ، تامة الصفات الا مثل ما يخفق فؤاد الجنين اول وهلة ، ثم تمسك الحياة فيه بعضها بعضاً ، وينمى بعضها بعضاً فلا تزال به حتى يخرجها الى الوجود ، فيؤدى فيه وظيفته ، ويستوفى فيه برهته ، ولو أجد مثلاً أصف الامة اليابان ، وأنها الدليل حاضر ، وشاهد معاصر .

على أن الحياة ربما كانت أسرع جرياً بالأمم منها بالافراد ، فقد جاوز اليابانيون اطوارها الاول الى هذا الشباب المرجو الخائل . المبشر بآبرك الاعمار في المدنية والحضارة في نحو ربع قرن من الزمن ، وهي برهة قد لا تكفى الواحد من الافراد ليلعب في الصبا أملاً ؛ أو يحسن في الحياة عملاً .

( قال الهدهد ) كان النسر يتكلم وكان كلامه حديث الحبيبة تأخذه الآذان ، وهو

ياخذ الوجدان، يد أنه حكم عزز، وحقائق كبر، تستوجب النظر، حتى أمسك  
عن الكلام، فوددت أنه لم يمسك. وقلت له: لو خيرت يا مولاي فيما أريد لما اخترت  
الا أن يبعثك الله فتمشي في القوم خطياً هادياً. وطيباً مداوياً. تتبع أقصى الداء،  
وتصف عزير الدواء.

قال: ليكون لي ولكم شأن يوم بجمعنا القاهرة، قلت: ومتى تدخلها يا مولاي؟  
قال: يوم يقتل عثمان ويصير أمر العرب من الخلافة الى الملك. فهناك انفض يدي  
من دولتهم واصدرك عن الفسطاط. وارد القاهرة. عاصمة مصر الحاضرة. ثم  
أخذت النسر الاغماء المعتادة فثاب وقال كلمته المألوفة اذا جاء الليل ذهب الشياطين؛  
وموعدا غداً دار العجوز. وأصابني مثل ما أصابه، فساهى الا غمضة عين ثم اتباهة  
حتى رأيت الفسطاط واطلالها. وحاذيت في القطار تلاها. فعجبت للحال ونحوها.  
والروح وتنقلها. وأخذت في نفسى على النسر هذا الرجوع الى الخلط في المواعيد.  
وأعابني بدار العجوز أنشدها ولا أنشدها: أهلا بدار سباك أعيدها.

